الثوابت السردية في القص العربي القديم: النظام والدلالات

ملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة مجموعة من الحكايات العربية التي يضمها كتاب كليلة ودمنة.

ويقترح دراسة جديدة للثوابت الشكلية السردية التي تتواتر في كل الحكايات. إن السارد والمسرود عليه كعناصر مكونة للحكاية قد تمت دراستهما بطريقة منتظمة إضافة إلى خصائصهما النفسية والفكرية ومقدرتهم على الحكي.

كما يتعرض أيضا بالدراسة إلى وظائف الهيئتين السرديتين (السارد والمسرود عليه) ومختلف العلاقات بينهما. وتعتبر هذه الدراسة محاولة متواضعة لمقاربة النصوص السردية القديمة بغية تحيينها وجعلها حاضرة ووظيفية في فضائنا الثقافي.

أ. عليمة قادري خمري
قسم اللغة والأدب العربي
كلية الآداب واللغات
جامعة منتوري قسنطينة

يتميز السرد القصصي القديم بمجموعة من الخصائص الشكلية التي جعلت منه ميدانا للدراسات البنيوية والشكلية.

وهذه الخصائص نجدها تتواتر عبر كل النصوص السردية وتمثل مظهرا بارزا من مظاهرها. وفي المجال العربي نجد أن المقامات، أو كليلة ودمنة أو ألف ليلة وليلة تتمايز بمتغيراتها أكثر مما تتمايز بثوابتها،

ورغم ذلك نجد أن كل نص من النصوص السردية المذكورة يتسم بثوابته الخاصة، وغالبا ما نجد هذه الثوابت في بداية السرد أو في نهايته، أي أنها تقوم بتأطير عملية الحكي وتحدّد مسارها السردي مثل: - كان ياما كان أو - حدّثنا عيسى بن هشام قال: ... أو - بلغني أن... إلى غير ذلك من الخصائص الشكلية. وتجد أن أغلب حكايات

Résumé

Cette recherche a pour objet l'étude d'un recueil de contes arabes, en l'occurrence Kalila et Dimna. Elle se propose d'analyser les constantes formelles, c'est-à -dire les invariantes narratives récurrentes qui se répètent dans chaque conte. Le narrateur et le narrataire comme éléments composants sont étudiés d'une manière systématique, leurs caractéristiques psychologiques, intellectuelles et leurs compétences narratives sont mises à plat.

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2001.

Les fonctions de chacune des instances narratives sont également définies par l'étude et les différents rapports entre les deux instances qui sont précisément clarifiés.

Cette étude est une tentative modeste d'approcher les textes narratifs anciens pour les réactualiser et les rendre présents et fonctionnels dans notre espace culturel.

كليلة ودمنة تبدأ بالصيغة البروتوكولية: قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف... أو... فهذا مثل... أو كيف كان ذلك؟... أو زعموا أن...

ونلحظ خاصية أخرى هي ثبات الهيئات السردية، أي السارد والمسرود عليه، ومن خلال علاقتهما تتشكل صورة كل من الطرفين وتتحدد وظيفته ومساهمته في تطوير الحكاية وإعطائها دلالتها السردية والجمالية.

1 - <u>الثوابت الشكلية:</u> يستعمل ابن المقفع في حكايات <u>كليلة ودمنة</u> نفس الوسائل التقنية المستعملة لإنتاج الحكاية وذلك عن طريق توظيف السارد كشخصية سردية فاعلة ومنتجة.

إن الافتتاحية المتواترة:

"قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: ..." والتي تحضر في بداية الحكي يمكن اعتبارها بمثابة صيغة بروتوكولية تفتتح بها كل الحكايات.

أما الجملة التي تأتي في صيغة الأمر:

"اضرب لي مثلا..." هي بمثابة وسيط (Médias) يتجه الملك من خلاله في كل مرّة (المسرود عليه) (Le narrataire) إلى الفيلسوف السارد (Le narrateur) ليطلب منه حكاية محدّدا ملفوظها السّردي. وهذا الطلب من قبل الملك يعني أن السارد ذو إمكانية (Compétent) للحكي ويقوم بتلبية طلب الملك.

في الحكاية الأولى "باب الأسد والثور" يقترح الملك على الفيلسوف موضوع سرده: "اضرب لي مثلا لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء"[1].

هذا الطلب الذي جاء في صيغة أمريّة إلزامية هو ما تعبر عنه في السيميائيات المنطقية بالتحريك (Manipulation) والتي تجعل الفيلسوف يبلور من خلالها الحكاية. وبانطلاق عملية الحكي يجد الملك نفسه منفيا خارج حدود السرد دون أن يجرؤ على التدخل في سيرورة الأحداث أو تغيير اتجاهها وجهة معينة.

ومن هنا يتحرر السارد - الفيلسوف من سلطة المسرود عليه - الملك وتتبع كل حكاية منطقها الداخلي بعيدا عن أي ضغط خارجي وبذلك تنتج تيمتها الخاصة وتبني عالمها التخيلي المتميز. هذه الخصائص تتعلق بمجموع حكايات كليلة ودمنة، وتطبعها بهذه الصفة باستثناء الحكايتين الأوليتين.

الحكاية الثانية التي ترتبط بطبيعة الحال بالأولى عن طريق علاقات شكلية ومضمونية تحاول الاستمرار في نفس المضمار وتكملها لتصل بها إلى نهايتها.

---

[1] ابن المقفع (ع)، كليلة ودمنة. ص172.

ويبدو أن الملك كان مفتونا بتفاصيل الحكي والتلهف لمعرفة المزيد من الدقائق حول النهاية التي ينتهي عندها بطل الحكاية الأولى الذي هو "دمنة" وبذلك يحرض الملك من موقعه كمسرود عليه (narrataire) السارد (narrateur) للاستمرار في الحكي.

باستثناء هاتين الحكايتين نلاحظ استقلال الملفوظات السردية عن بعضها البعض وانفصال اللاحق منها عن السابق. وتتجلى تقنية الفاتحة من خلال كل النصوص تقريبا بنفس الصفة حيث تكون الجملة الخبرية: "قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف." هي المحرك الأساسي لعملية السرد وبعدها يختفي صوت الملك ليفسح المجال للسارد كي يستعرض حكايته.

ويساهم المسرود عليه الذي هو الملك كما هو معروف في إنتاج الحكي وممارسة حضوره من خلال مجموعة من الثوابت الشكليّة إذ يتدخّل ليذكّر السارد ومن خلاله القارئ أو يقوم بتلخيص مضمون الحكاية السابقة وفي نفس الوقت يشترط حكاية جديدة ويحدّد مسبقا موضوعها: «قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت مثل المتحابين ... فحدثني عن ..»[2].

من خلال هذه الفاتحة يتضح كيف يطلب المسرود عليه من السارد أن يقدم له حكاية تنطوي ضمن نفس الإطار الشكلي وأيضا كيف يجب أن تنتهي عملية الحكي.

وبعد تلقي أوامر المسرود عليه يستجيب السارد لهذا الأمر ويبدأ بالتعليق على الملفوظ السردي كما اقترح عليه مثلما يظهر ذلك جليّا في "باب الحمامة المطوقة" حيث يجيب الفيلسوف الملك بواسطة تعليق وهو ما يعكس علاقة خفية متوترة بينهما حيث يحاول كل واحد منهما أن يمارس هيمنته على الآخر ويسحبه إلى ميدانه كما يقول النص:

«قال الفيلسوف: إن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئا... ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوقة والجرذ والظبي والغراب، قال الملك: وكيف كان ذلك؟! [3] إن تعليق الفيلسوف الذي هو في الواقع تلخيص لمحتوى الحكاية يمكن أن يتطور انطلاقا من جملة واحدة أن يستمر خلال فقرة كاملة كما نجد ذلك في "باب السائح والصائغ" حيث تكون إجابة الفيلسوف كما يلي: قال الفيلسوف: إنّ طبائع الخلق مختلفة ... قال الملك: وكيف كان ذلك ؟![4]

والجملة إن طبائع الخلق مختلفة تحيلنا إلى عالم الفيلسوف الإغريقي ثيوفراست (Théophraste)* في كتابه الطبائع وكذا مؤلف الطبائع الفيلسوف الفرنسي لابرياز (La Bruyère)** كما تحيلنا إلى فكرة طبائع العمران عند ابن خلدون. وهذا يعني أن فكرة الطبائع فكرة اصلية ونمطية

---

[2] ابن المقفع (ع) كليلة ودمنة. ص172.

[3] ابن المقفع (ع) كليلة ودمنة. ص172.

[4] ابن المقفع (ع) كليلة ودمنة. ص273.

* Théophraste: philosophe grec, né à l'île de Pesbos (v.372.-287av. J.C.) Il succéda à Aristote dans la direction du lycée. Il est l'auteur des caractères que traduisit la Bruyère.

** La Bruyère (Jean de): écrivain français né à Paris (1807/1869); ses "Caractères" sont conçus à partir d'une traduction du grec Théophraste.

(Archétypale) في الوعي الإنساني ومتداولة في كل الآداب ومختلف الحضارات.

ومهما يكن نوع التعليق سواء أكان جملة أو فقرة كاملة فإن الملك يظهر دائما نوعا من عدم الرضا ويشترط حكاية أكثر تفصيلا وذلك من خلال سؤاله الذي يتكرّر بطريقة آلية بصيغة: وكيف كان ذلك؟ !

هذه الصيغة:/ "السؤال" تعتبر إحدى الثوابت الشكلية ويمكن أن نفسرها بطرق مختلفة كأن تعبّر مثلا عن جهل الملك أو عن حبّه للمعرفة أو عن هيبته من معرفة الفيلسوف. كما يمكن، على مستوى آخر، أن نعتبرها محاولة لتعجيزه ودفعه إلى إنتاج المزيد من الحكايات. إن السارد يجيب الملك دائما بحكاية يستهلها بجملة نمطية هي: "زعموا أن ..." وهذه الجملة في السرد القديم علامة على رسم الحدود بين العالم الواقعي وعالم الحكاية، وعلى المستوى التأويلي يمكن أن نقول إنها إجابة الملك الذي يطرح السؤال المتكرر والملح: «وكيف كان ذلك؟ !»

وعبارة «زعموا أن ...» لا تلزم السارد بمسؤولية ما يحدث في الحكاية؛ هناك ثابتة أخرى تبدأ بها، دائما، الحكايات المتضمّنة (récits englobants) وأيضا الحكايات المتضمّنة (récits englobés) التي تحمل عنوان "باب البوم والغربان" وبالنسبة للحكاية المتضمّنة في "باب الأسد والثور" والتي تبدأ بـ: «زعموا أن قردا رأى نجّارا»[5].

ويمكن أن نحصر الثوابت الشكلية في نص كليلة ودمنة من خلال الصيغ المتواترة التالية:

« قال الملك دبشليم" و"اضرب لي مثلا" و"وكيف كان ذلك؟ !" و"زعموا أن .."

ومهما يكن نوع التعليق سواء أكان جملة أو فقرة كاملة فإن الملك يظهر دائما نوعا من عدم الرضا ويشترط حكاية أكثر تفصيلا وذلك من خلال سؤاله الذي يتكرّر بطريقة آلية بصيغة: وكيف كان ذلك؟ !

وهذه الصيغ يمكن عدّها من الوسائل الشكلية التي تساعد على إنتاج السرد ونجدها تتكرر في بداية كل حكايات كليلة ودمنة. ولكي يحدّد السارد نهاية الحكاية ويؤكد عليها فإنه يلجأ إلى بعض الثوابت الشكلية التي توحي بنهاية الحكي والتوقف عن ممارسته إذ يستعمل مثلا عبارة: "فهذا مثل ..." ليعلن للمسرود عليه عن نهاية الحكاية مثل: "فهذا مثل الرجل الذي يطلب ..."[6]

قد يلجأ السارد إلى شكل آخر من الثوابت مختلف بشكل ما عن الأول لإنهاء حكايته كما نجد ذلك في قوله: "وإنما ضربت لك هذا المثل ..." كما نجد تنويعا آخر لهذه الصيغة في حكاية "اللبؤة والأسوار والشعهر" إذ تنتهي بـ: "وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم ..." ونلاحظ أن صيغة النهاية الأولى كان فيها المثل متروكا للمتلقي، أي الملك، ليستنتج منه الحكمة والمعرفة.

---

(5) ابن المقفع (ع) كليلة ودمنة. ص100.

(6) ابن المقفع (ع) كليلة ودمنة. ص226.

وفي الحالة الثانية فإن غرض المثل هو تعليم الملك، وهذا يعني أن الهدف من حكايات كليلة ودمنة ليس للتسلية فقط وإنما لأغراض تعليمية وسياسية وهو بهذه الجملة: "ضربت لك هذا المثل لتعلم ..." يعلن الفيلسوف السارد تفوقه على الملك.

هذا هو النوع الأول من الثوابت الشكلية التي تتواتر في كل حكايات كليلة ودمنة رغم تعدد مواضعها وتنويعاتها وانتقالها من حكاية لأخرى وهو ما يعطيها نوعا من الانسجام ويجعل السرد فيها متناغما ومتناسقا.

المقولة السردية الثانية تتعلق بالشخصيتين المهمتين في مجموعة كليلة ودمنة والتي تقوم بتحريك السرد وإنتاجه أو استهلاكه وهما: المسرود عليه (Le narrataire) الملك دبشليم باعتباره "مرويالـه" متقبلا للسرد ومتلقيا له، وبيدبا الفيلسوف باعتباره ساردا (narrateur) أي منتجا للخطاب السردي وغالبا ما تتم هذه العملية بأمر من المسرود عليه.

2) <u>السارد والمسرود عليه</u>: هاتان المقولتان يمكن اعتبارهما هيئتين سرديتين تحتلان مساحة السرد وتسيطران على آلياته عبر كل الحكايات.

فالسارد الذي هو بطبيعة الحال بيدبا الفيلسوف والمسرود عليه الملك دبشليم يقومان بتأطير فعل السرد وينتجان معا الحكاية، وإذ انظرنا إلى هاتين الهيئتين من الناحية التركيبية والشكلية نجدهما تقومان بتنظيم فعل السرد في كل الحكايات، إذ نلاحظ في كل مرّة أن الملك يقترح مضمونا للحكاية ويعطي إشارة الملفوظ السردي (l'énoncé narratif) للسّارد الذي لا يشك أبدا في مقدرته على تطوير الحكاية وتوسيعها. وهو ما يسمح للسارد باختيار شكل الحكي معتمدا على طريقة التضمين "حيث تتجلى صيغة التضمين هذه في شكل قصة موضوع كاملة تعقب الأخرى وتنتج عن طريق العلاقة بين الشخصيات"[7].

يعطي السارد لحكايات كليلة ودمنة الصيغة التنظيمية بناء خاصا بها يتميّز عن الأشكال السردية الأخرى، ولفهم أهمية السارد والمسرود عليه من خلال هذه المجموعة من الحكايات فإنه يلزم معاينة دور ووظيفة كل من هاتين الهيئتين السرديتين في خطاب الحكي، و تبدو هذه المهمّة شاقة ومعقدة خاصة فيما يتعلق بالحكايات المتضمّنة (récits englobés) التي تتوالد وتتشعب بطريقة لا متناهية، وتقنية التضمين هذه تذكرنا بطريقة "الحكي في قصص ألف ليلة وليلة التي ترويها شهرزاد حيث "تتوالى تضمينات الحكايات من قصة لأخرى والتي ليس لها على الأقل نظريا من نهاية حيث تتعد مستويات السرد والتي تعطي الأنطباع بطريقة أن كل حكاية تتضمن حكاية والتي تصير في مرتبة أخرى إطارا لحكاية أخرى وهكذا دواليك"[8].

أ - **<u>السارد</u>**: يبدو أن بيدبا الفيلسوف الذي هو السارد الأساسي في كليلة ودمنة كشخص

(7) Chklovski (V.): sur la théorie de la prose. p104.

(8) Pavel (T.G.): la structure narrative des tragédies de corneille. p7.

"غائب عن الحكاية التي يرويها"[9] أي أنه لا يشارك في أحداث الحكاية التي يرويها ولكنه ينقلها بطريقة سرديّة حياديّة ويمارس عليه نوعا من التعالي إذ نلاحظ أن التواصل معدوم بينه وبين "الكائنات" السردية.

إن هذه الكائنات السردية التي تقوم بسرد الأحداث ترغم السارد على الخروج من دائرتها وبالتالي لا تقوم بأي دور من أدوارها. وبهذه الصفة يصبح السارد هو القائم بعدّة وظائف تجعل السرد وسيلة من وسائل التواصل والإبلاغ.

وظائف السّارد:

1 - أول وظيفة يقوم بها السارد هي إنتاج الحكاية حيث يقوم بيدبا بتطويرها عبر كل قصة وهو الذي يقوم بترتيبها وإرسالها باتجاه المسرود عليه الملك دبشليم. وما يحدّد أولى وظائف السارد هو "الوظيفة السردية في حدّ ذاتها والتي لا يمكن لأي سارد أن يتحلّ بهذه الصفة ما لم يجسد هذه الوظيفة[10].

2 - الوظيفة الثانية التي يقوم بها بيدبا تبدو هي الأخرى بديهية إذ تتمثل في تنظيم القصة داخل كل الحكايات، وهي في نفس الوقت "النص السردي الذي يحيل إليه السارد داخل الخطاب بحشد بصفة ما الوظيفة الوصفية لتحديد التمفصلات والارتباطات وأنواع التعالق، وباختصار النظام الداخلي"[11].

من خلال هذا التأطير النظري نلاحظ أن بيدبا السارد هو الذي يمسك بالخط المحرك للسرد في مجموعة كليلة ودمنة ويعطى للخطاب خصائصه التي تميّزه عن أنواع الخطابات الأخرى. وتتمثل هذه الوظيفة في تحديد نصائح بيدبا ومثالاته واستشهاداته الفلسفية. كما يقوم السارد بتقديم شخصياته وهم يقومون بالأفعال السردية ونادرا ما يقدم أوصافهم "ولا يجد أدنى حرج في وصفهم كما يقوم بذلك لافونتين La Fontaine حيث كل شخصية تبدو محددة بأفعالها وبلغتها أيضا" [12].

ومن هنا يقوم السارد بتقديم الثعلبين "كليلة" و"دمنة" في الحكاية الأولى التي تحمل عنوان "باب الأسد والثور" من خلال جملة قصيرة إذ يقول "وكان فيمن معه من السباع ابنا أوى يقال لأحدهما كليلة والآخر دمنة وكانا ذوي دهاء وعلم وأدب..."[13].[13]

ومن جهة أخرى يذكر السارد أو يحدد نوع الشخص الذي يختاره مثلما يقول: "ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوقة والظبي والغراب" [14].

ومن جهة أخرى يذكر السارد أو يحدد نوع الشخص الذي يختاره مثلما يقول: "ومن

---

[9] Genette (G): figures III. p252.

[10] Genette (G): figures III. p262.

[11] Genette (G): figures III. p262.

[12] Ben Ghazi (M.F): un humaniste du 2e siècle. p220.

[13] ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص99.

[14] ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص172.

أمثال ذلك مثل الحمامة المطوقة والظبي والغراب".[14]

وبصفة عامة فإن السارد لا يقدم أوصافا طويلة أو تفاصيل دقيقة. ومن هنا نلاحظ أن كليلة ودمنة لا يمكن أن ترتب مع "الأجناس السردية الأخرى كالملحمة مثلا حيث تحتل الأوصاف فضاء أكثر اتساعا"[15].

وهذا يعود إلى طبيعة السارد وبنائه الفكري فهو فيلسوف وله من التجارب الفكرية ما يسمح له بتوصيل تجاربه المعاشة عن طريق الأقوال والأفعال ولهذا السبب فهو لا يركّز على الوصف الخارجي للشخصيات إذ يعبر مباشرة إلى الحديث عن أفعالهم ووظائفهم.

3 - الوظيفة الثالثة التي تفرض نفسها على السرد وتحتل مكانا مرموقا في كل الحكايات وهي من ضمن مهمات الكاتب وصلاحياته التي تخول له أن يجعل من سارده فيلسوفا، وهذه الملاحظة مهمة ولها قيمة كبيرة في هذا السياق. وإذا كان سارد كليلة ودمنة فيلسوفا ويمتلك المقدرة على تعميق المضامين والموضوعات المقترحة من لدن الملك فهذا يحدد وظيفته ويخصصها باعتبارها وظيفة تربوية (نصح الملك).

وبالتالي يمكن أن نقول إن وظيفة السارد الثالثة هي وظيفة تربوية حيث يقوم بتعليم الحكمة وتقديم النصح له ويلقنه المعارف والآداب، إن السرد ليس هو مجرد قصص على ألسنة الحيوانات لأنها تمتلك رؤية عميقة وتتطابق مع البناء الفكري للسارد حيث يبدو "سرّ رمزيّة الحيوان مشحونا بالدلالات"[16].

وهذا ما يمكن السارد من معالجة سياسة الأمراء مستهدفا الملك بالدرجة الأولى إن لم نقل الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور، وهو ما يمكن أن نصل إليه إذا تعمقنا في تحليل كليلة ودمنة إذ يمكن "أن نستخرج من هذه الحكايات المتداخلة نوعا من الأخلاق السياسية التي تتمحور بطريقة صريحة حول بعض المواضيع مثل الصبر والعفو والقناعة والحذر"[17].

كما تجدر الإشارة إلى أن كليلة ودمنة ليست مجرد مجموعة من الحكايات التي تدار على ألسنة الحيوانات بل إن "قيمة الكتاب هي في نفس الوقت عمل أدبي وثروة علمية وأخلاقية إضافة إلى كونه ديوانا من الحكم"[18].

فالسارد لا يتوجه إلى الملك فحسب ولكن إلى القارئ أيضا مهما اختلفت صفاته وتنوعت آفاقه ويدفعه إلى قراءة هذه الحكايات بعمق ليستخلص من كل واحدة دروسا وعبرا. يقوم السارد إذا بوظيفته بصفة كاملة من خلال كل حكاية التي هي بمثابة نتيجة لخبرة طويلة تكشف عن حكمة وفلسفة السارد.

4 - الوظيفة الرابعة التي يقوم بها السارد تبدو أكثر الوظائف قيمة وهي الوظيفة

---

(15) Genette (G): figures: III. p57.

(16) Ben Ghazi (M.F): un humaniste du 2e siècle. p93.

(17) Ben Ghazi (M.F): un humaniste du 2e siècle. p142.

(18) Miquel (A): Kalila et Dinna. p5.

التواصلية والتي هي كما يقول جيرار جنيت: "الوضع السردي ذاته حيث يكون البطلان هما المسرود عليه والسارد"[19] حيث يكون المسرود عليه الذي يقترح المضامين في علاقة مستمرة مع السارد الذي ينتج الحكاية "والذي يمتلك كل الوظائف الملازمة لفعل التواصل[20] لتلبية رغبة المسرود عليه. ولكي يتمكن السارد من مراقبة تأثيره على المسرود عليه ويفرض عليه نوعا من الهيمنة فإنه يختتم في كل مرّة حكاياته بتعابير تشبه "فهذا مثل" هذا النوع من الثوابت الشكلية يشدد على "وظيفة الربط "ويراقب الاتصال بين المتخاطبين"[21].[21]

إن وظيفة التواصل تبدو ملحة وجلية في كليلة ودمنة من خلال بداية كل حكاية إذا يقدم السارد الفيلسوف تحليلا لا يمكن اعتباره سطحيا مهما كانت علاقتنا بهذه الحكايات ومهما اختلفت طريقة قراءتنا لها، إذ أن بيدبا لا يخاطب دبشليم فقط ولكنه يتواصل مع عدد لا متناه من المسرود عليهم.

ب) المسرود عليه:

1) خصائصه:

إن المسرود عليه في "كليلة ودمنة" هو الملك دبشليم ويعتبر على المستوى البنيوي أحد المكونات الثابتة إذ هو الذي يتوجه إليه بيدبا في كل الحكايات وحتى إذا كان السارد هو الذي يعطي للسرد ملمحا محددا فإن المسرود عليه يساهم بدوره في هذه العملية وهذا لا ينفي كون اعتبار المسرود عليه « أحد عناصر الوضع السردي ويتموضع بالضرورة على نفس المستوى الحكائي"[22] مع السارد.

وهذه الملاحظات لا تسمح لنا أن نخلط بين المسرود عليه والقارئ بنفس الطريقة التي لا يمكن أن ندمج بها بين السارد والكاتب، والمسرود عليه الذي هو الملك دبشليم لم تعط بخصوصه العلامات الكافية التي تحدده وتخصصه عدا جملة قصيرة نصادفها في بداية كل حكاية ومنه فنحن لا نعرف عنه غير الاسم وصفته الوظيفية أي باعتباره ملكا وهذه الجملة هي: "قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف" هذه الجملة يتلفظ بها السارد الخارج عن القصة (Hétérodiégétique) الذي يجب تمييزه عن الأشخاص الذين يقومون بالفعل سواء في القصة المتضمَّنة (récit Englobé) أو القصة المتضمَّنة (récit Englobant) وهذه الجملة تتوجه إلى القراء وتفيد معلومتين خاصتين لكل من الشخصيتين الأولى الملك والثانية الفيلسوف، ونلاحظ أن مؤلف هذه المجموعة من الحكايات لا يلجأ إلى الأوصاف الطويلة أو طرائق التمجيد لتحديد وتعيين السارد والمسرود عليه، وباختصار يمكن أن نلاحظ أن المسرود عليه لا يتدخل أبدا في النص لتوجيهه باتجاه

(19) Genette (G): Figures III. p262.

(20) Rey-Hulmann (D): « Procès d'énonciation des contes », Littérature (1982). p45.

(21) Genette (G): figures III. p262.

(22) Genette (G): figures III. p183.

معين ولا حتى عندما يشير عليه السارد بنهاية الحكاية معتمدا على الثابتة الشكلية "فهذا مثل" فالسارد يعلن أنّه "-بطريقة أو بأخرى- قد استقبل الحكاية ووصلت إليه[23] وبما أن المسرود عليه ملك فإن الكاتب يجد نفسه مجبرا على التشديد على الجانب السياسي ويصبح "كتابه الثمين عبارة عن مؤلف في سياسة الملك"[24].

وبتفكيك رمزية الخطاب الذي يدار على ألسنة الحيوان فإن القارئ يعتمد على خطاباتها المتميزة بالحكمة ليعتبرهم كأشخاص حقيقيين يتبادلون الحكمة فيما بينهم، ومن هنا تتوطد العلاقة الوظيفية بين الشخوص الإنسانية والشخوص الحيوانية وتتبنى علاقة تراتبية تعتمد بالدرجة الأولى على الذكاء حيث يتحول "كل حيوان إلى إنسان مقنع"[25].

إن العلاقة التراتبية بين المسرود عليه والسارد أي بين الملك والفيلسوف لا تنفي الصفة عن كون المسرود عليه يتموضع في نفس المكان الذي يوجد فيه المستمع.

يقوم الملك في كليلة ودمنة بوظيفة واحدة هي الاستماع إلى ما يحكيه بيدبا ولا يتدخل مطلقا في عملية السرد. كما يمكن أن نعتقد من خلال هذا الموقف أن الملك يعرف الحكاية ويقترح على السارد المحور السردي الذي يجب عليه أن يتحدّث فيه. هناك خاصية مهمة تصف المسرود عليه حيث نجد أنّ علاقته بالسارد في وضع ثابت على الرغم من اختلافهما على الصعيد الأخلاقي والثقافي إذا أن السارد يمتلك المعرفة والذكاء ويعرف كيف يقدم مجموعة من الأفكار حول الشرط الإنساني انطلاقا من جمل قصيرة بينما لا يحوز الملك إلا على السلطة المتمثلة في تدخله في كل مرّة ليفرض على سارده نوعا محددا من الحكاية.

إن تلبية رغبة الملك في الاستماع إلى الحكايات وغيابه على عالمها تعمق المسافة الأخلاقية بين السارد والمسرود عليه، وتضع كل واحد منهما في خانة محددة وتفصله عن الآخر بحكم وظيفته. هناك خاصية أخرى متعلقة بالمسرود عليه تجعله لا ينتمي إلى أية مجموعة فهو الملك الذي يكوّن وحده مجموعة متميّزة ويحكم شعبه ومن ضمنه سارده، إن السارد الفيلسوف الذي أسند إليه الملك مهمّة الحكي والتي أبدى إزاءها مقدرة كبيرة تجسد سلطة الملك وهيبته واختياره لتوزيع الوظائف.

2) وظائف المسرود عليه:

1 - إن الوظيفة الأولى التي يقوم بها المسرود عليه في كليلة ودمنة هي القيام بدور "الربط بين السارد والقراء أو بين الكاتب والقارئ"[26] إذ يتوجه إلى الفيلسوف الذي يصير فيما بعد هو السارد ويبني علاقة بنيوية مع الذي ينتج الحكاية، إن هذه الوساطة تبدو مبدئيا ذات اتجاه واحد حيث نلاحظ أن بيدبا لا يبادر بالحديث مباشرة إلى الملك إلا إذا طلب منه الملك ذلك، ويظهر السارد بمظهر المنفّذ لأوامر سلطة مطلقة.

---

(23) Prince (G): « Introduction à l'étude du narrataire » Poétique N° 14 1973. p188.

(24) Miquel (A): Kalila et Dimna. p2.

(25) غريب (ج): عبد الله بن المقفع. ص76.

(26) Prince (Gérald): « Introduction à l'étude du narrataire » Poétique N° 14/ 1973. p191.

2 - يمارس المسرود عليه "وظيفة تخصيصيّة"[27] (une fonction de caractérisation) التي نلاحظها عبر مجموع الحكايات حيث يقوم بتحديد ملامح السارد في بداية كل حكاية عبر الجملة التالية "قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف".

3 - إن المسرود عليه في كليلة ودمنة لا يساهم في بناء مضمون الحكاية فحسب بل ولكنه هو الذي يختار مضامينها بطريقة مستمرة وبإلحاح من بداية الكتاب إلى نهايته بطريقة ثابتة ومتواترة وإذا كان المسرود عليه يساهم في بناء مضمون الحكايات فإنه يشكل حتما جزءا من إطار السرد »[28].

إن كاتب "كليلة ودمنة" قد أسند إلى السارد وظيفة الفيلسوف كما أسند وظيفة الملك إلى المسرود عليه والتي يمكن عدّها أهم وظيفة يقوم بها هذا المسرود عليه حيث تتطابق تماما مع وظيفة في الحكايات: وإذا كان ابن المقفع قد نقل هذه المجموعة من الحكايات من الهندية والفارسية إلى العربية مع محافظته على الملك دبشليم بوصفه مسرودا عليه ثابتا من بداية السرد إلى نهايته، فهذا بغرض متابعته للفكرة العامة والدلالة السياسية لهذه الحكايات ومن هنا يكون لزاما على ابن المقفع الحفاظ على هذا المسرود عليه الملك في كل الحكايات ليتمكن من إعطاء معنى واحد لكتابه هو أنه كتاب يندرج ضمن ما سمي بكتب سياسة الملوك.

3 - التضمينات:

حسب أ.ج غريماس"يستعمل مفهوم التضمين في السيميائيات السردية للدلالة على إدماج حكاية أوسع دون تحديد للوظيفة الدقيقة للحكاية الصغرى"[29].

وتبدو هذه التقنية أكثر تواترا في كليلة ودمنة من غيره من النصوص السردية العربية القديمة إذ نلاحظ أن أكثر من نصف نصوص المجموعة تحتوي على حكايات متضمّنة وهذه التضمينات تتوارد بصفة خاصة في الحكاية الأولى المعنونة بـ"باب الأسد والثور" وفي الرابعة "باب البوم والغربان". كما نلاحظ أن بعض النصوص لا تحتوي إلاّ على حكاية متضمّنة واحدة مثل "باب القرد والغيلم و"باب الناسك والضيف"، وفي المقابل نجد أن بعض الحكايات لا تحتوي على أيّ تضمين مثل "باب القرد والسنور" و"باب الملك والطائر فنزة" و"باب اللبؤة والأسوار والشعهر" و"باب الأسد وابن أوى" و"باب السائح والصائغ" و"باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين".

رقم الحكاية	عنوانها	عدد القصص المتضمّنة

(27) Prince (Gérald): « Introduction à l'étude du narrataire » Poétique N° 14/ 1973. p193.

(28) Prince (Gérald): « Introduction à l'étude du narrataire » Poétique N° 14 1973. p195.

(29) Greimas (A-J): et Courtès (J): Sémiotique: Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. p123.

1	الأسد والثور	عديدة
4	البوم والغربان	عديدة
5	القرد والغيلم	قصة واحدة
12	الناسك والضيف	قصة واحدة
7	الجرد والسنور	
8	الملك والطائر فنزة	
11	اللبؤة والاسوار والشعهر	
9	الأسد وابن أوى	
13	السائح والصائغ	
15	الحمامة والثعلب ومالك الحزين	

إن بعض الحكايات المتضمّنة يمكن أن تتحول هي الأخرى إلى حكايات متضمَّنة مثلما نلحظ ذلك في الحكاية الرابعة حيث نعثر على حكاية متضمنة هي قصة البغضاء بين البوم والغربان يحكيها غراب: "قال الغراب: "زعموا أن جماعة من الكراكي"..."[30].

هذه الحكايات هي بدورها تتضمن حكاية أخرى:

- الأولى هي قصة الأرنب والقمر: "كما فعلت الأرنب التي زعمت أن القمر ملكها... قال الطير وكيف كان ذلك؟! قال الغراب: زعموا أن..."[31].

- الثانية: القصة الثانية والتي تروى ما جرى بين الأرنب والطير. إن الانتقال من القصة المتضمّنة إلى القصة المتضَمّنَة يتمّ بواسطة نفس الثوابت الشكليّة التي تبتدئ بها القصّة المتضَمّنَة حيث نجد باستمرار السؤال الملح: وكيف كان ذلك؟! إن شخصيات القصة الصغرى يجدون أنفسهم في نفس المستوى مع شخصيات القصة المتضَمّنة (récit englobant) حيث نجد أن دمنة عندما يريد أن يقصّ حكاية القرد والنجار في الحكاية الأولي يقول: "... أصابه ما أصاب القرد من النجار..." في هذه الحال يقوم دمنة بوظيفة المسرود عليه أي الملك، إنه نفس السؤال الذي يطرحه الملك على الفيلسوف السارد. ويقصّ كليلة إذا الحكاية (القصة المتضمّنة (récit englobé):

"قال دمنة: وكيف كان ذلك؟! قال كليلة: زعموا أن قردا رأى نجارا"[32]. ولكي ينهي السارد القصص الصّغرى والمتضمّنة يستعمل في نفس الوقت ذات الطرائق التي نلاحظها على مستوى القصة المتضَمّنة مثلما نجده في قوله: "وإنما ضربت لك هذا المثل..." من هنا يتضح أن الحكاية المتضمّنة (récit englobé) في كليلة ودمنة تتموضع في إطار مواز لإطار الحكاية المتضمّنة، (récit englobant).

مستويات التضمين.

(30) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص196.

(31) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص198.

(32) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص100

التضمين في الحكاية الرابعة (باب البوم والغربان)

البوم والغربان: الحكاية المتضمّنة (récit englobant)
↓ *تتحول*
حكاية متضمّنة (récit englobé)
جماعة من الكراكي ⇓
الأرنب والقمر ⇓
الأرنب والطير

فما هي إذا وظيفة أو وظائف التضمين في حكايات كليلة ودمنة؟

1 - إن سارد هذه المجموعة يلجئ إلى التضمين ليس لتأجيل "تنفيذ الحكم بالإعدام"[33]. كما نجد ذلك في ألف ليلة وليلة ولكن لسرد الحكاية بطريقة أجمل لأن تقنية التضمين حتى وإن سعت إلى التقليل من سرعة السرد فإنها مع ذلك تعرقل تطوره.

يعتمد السارد على الحكاية المتضمنة لربطها مضمونيا مع المقطع السابق مثل قوله: "أصابه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع..."[34]. أو "كما فعلت الأرنب التي زعمت..."[35]. أو ".. أصابه ما أصاب الأرنب..."[36]. إن العلاقة المضمونية التي تعتمد على التناظر تتوطد بعمق بين التضمينات ومقاطع القصة السابقة عليها تجعلنا نعتقد أن "القصص المتضمّنة تأتي غالبا في شكل حجج"[37].

2 - يستعمل السارد القصص المتضمّنة ليفسح المجال لإحدى الشخصيات لإقناع شخصية أخرى أو إسداء النصح لها، وعندما يريد كليلة أن يقدم نصيحة لدمنة أو يحول نظره عن مشروعه يحكي له "قصة القرد والنجار": "فامسك عن هذا واعلم أنه من تكلف من القول والفعل ما ليس من شأنه أصابه ما أصاب القرد من النجار.
قال دمنة: وكيف كان ذلك؟!"[38].

بهذا المثل المتضمّن يريد كليلة أن يقدم نصيحة لأخيه دمنة، وعندما يريد دمنة أن يقنع الأسد بقتل الثور فإنه يحكي له قصة السمكات الثلاث: ومن أمثال ذلك مثل السمكات الثلاث، قال الأسد: وكيف كان ذلك؟! قال دمنة: "زعموا..."[39]

3 – يلجأ السارد إلى التضمين ليجعل شخصيته تمنع شخصية أخرى من القيام بعمل معين مثلما نلاحظ ذلك في مثل الزاهد الذي يروي قصة الغراب الذي يعاني سير الحمامة ولكنه لا يفلح في ذلك ولكي يحول الناسك ضعفه عن تعلم لغته، قال الناسك: "زعموا..."[40]. لنفس الأسباب نجد أن البُوم

---

(33) Chklovski (V): sur la théorie de la prose. p6.

(34) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص140.

(35) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص198.

(36) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص201.

(37) Todorov (T): poétique de la prose. p37.

(38) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص100.

(39) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص123.

الوزير الذي يريد أن يمنع الملك من الاعتقاد من التفكير بأن الغراب متنكر حيث يحكي له قصة الفأرة التي ترفض أن يكون زوجها غير الفأر، أي رفض الانسجام.

كما جاء في "باب البوم والغربان" قال الوزير الذي أشار بفتله كالفأرة التي خيّرت في الأزواج بين الشمس والريح والجبل فلم يقع اختيارها إلا على الجرذ. قيل له: وكيف كان ذلك؟ ! قال: زعموا أنه..."[41].

4 - قد تكون للحكاية المتضمنة وظيفة تفسيرية أو إيديولوجية لأنها تصدر عن رؤية محدودة ويمكن أن نستخلص ذلك من الصراع الذي دار بين الأسد والثور إذ يرى كليلة أن نصائحه لم تجد نفعا فيصرح أن الخديعة والحيلة تلزمان العقاب حيث يقول: "والخب والفجور شرهما عاقبة"[42].

من خلال القصة المتضمنة يحكي كليلة قصة رجلين: الأول محتال والثاني غبيّ حيث يؤول المحتال إلى عاقبة غير مفرحة، "قال كليلة: زعموا أن خبّا ومغفلا اشتركا في تجارة"[43].

إذ تسمح القصة لكليلة بتبرير موقفه والتأكيد على الفكرة التي مفادها أن استعمال الحيلة قد لا يكون في غالبية الأحيان هو الطريق الأسلم للوصول إلى هدف معين.

5 - قد يعتمد السارد أيضا على القصة المتضمنة ليفسح المجال لأحد شخصياته لتصف خاصية معينة أو يقدم حكما يرى بأنه ضروري كما نلاحظ ذلك مثلا في الحكاية الرابعة حين يصف الغراب باعتباره وسيلة تمكن أصدقاءه من الانتقام من البوم وهذا بعد أن يقصّ عليهم قصّة الثعبان والضفدع إذ يقول: "كما صبر الأسود على حمل ملك الضفادع على ظهره... قال الملك: وكيف كان ذلك؟! قال الغراب: زعموا..."[44].

وعى الحكاية الخامسة يريد القرد أن يبيّن للسلحفاة بأنه ذو ذكاء ويستطيع القيام بكشف حيلتها وفضحها يحكي لها قصة الذئب الذي رأى حمارا بدون أذنين ولا قلب فيقول: "أتظن أنني كالحمار الذي زعم ابن أوى أنه لم يكن له قلب ولا أذنان. قال الغيلم: وكيف كان ذلك؟! قال القرد: زعموا..."[45].

وهذه الوسيلة تسمح للسارد بممارسته الحكي بالطريقة التي يراها ملائمة للسياق والتأكيد على رؤية معينة أو تجربة محددة أو تحليل مخصوص ليعرض الأفكار الفلسفية التي يدعو إليها بيدبا الفيلسوف وبهذا فإن "القصة المتضمّنة تصير بمثابة صورة لهذه القصة المجردة الكبرى"[46] واستعارة لها.

---

(40) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص232.

(41) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص210.

(42) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص146.

(43) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص146.

(44) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص214.

(45) ابن المقفع (ع): كليلة ودمنة. ص223.

(46) Todorov (T): poétique de la prose. p40.

6 - هناك وظيفة أخرى تضطلع بها القصة المتضمنة وتتجاوز المستوى التقني الذي يهتم بالبناء السردي وتستعمل القصة المتضمنة من قبل السارد عبر جزء مهم من مجموع الحكايات لغرض محدد إذ يقوم بتفسير الحكاية المتضمَّنة (récit enchâssant) أو على الأقل مقطعا منها والعلاقة التي تكون بين القصة المتضمَّنة (enchâssant) والمتضمَّنة (enchâssé) علاقة مضمونية (relation thématique)" إن القصة المتضمّنة (enchâssant) هي قصة - القصة أو كينونتها وتمثل مصير كل قصة تتحقق من خلال التضمين"[47] كما يرى ذلك تودوروف.

وإذا كانت رمزية الحيوان تتجلى من خلال هذه الحكايات إذ يلجأ الكاتب إلى معالجة سياسة الأمراء فإنه يعمد عن طريق تداخل الحكايات المتضمّنة (récit enchâssés) إلى التحليل العميق والواضح لهذه السياسة. وقد وجد عبد الله بن المقفع في تقنية القصّة المتضمّنة وسيلة لعرض فلسفته ولنقد السياسة السائدة والتي ليست هي في الواقع إلا سياسة المنصور.

وتسمح تقنية القصة المتضمّنة في كليلة ودمنة ببناء السرد وتساعد على تبليغ فلسفة كاملة أو تقدم معرفة أو تعرض وجهة نظر حول الحياة الإنسانية وخاصة حول سياسة الملك، وقد كتب تودوروف حول تقنية التضمنين في ألف ليلة وليلة موضحا بأن "الحكاية تساوى الحياة"[48] ويسمح لنا معنى كليلة ودمنة بالقول بأن الحكاية تقوم بوظيفة تربوية وتقوم بتعليم الأدب عن طريق القصص وتحاول تلقين الفلسفة عن طريق الحكاية بلسان الحيوان.

المراجع

- عبد الله بن المقفع: كليلة ودمنة، عني بضبط غريبة وتفسير مشكله محمد حسن نائل المرصفي، دار المسيرة 1980. بيروت.
- M.F. Benghazi: un humaniste du IIe siécle (VIIIe s. J.C.), A.B. al Muqaffa. Thèse de doctorat, 1957. Paris.
- V. Chklovski: sur la théorie de la prose. éd. L'Age d'Homme, 1973 Lausanne. Suisse.
- G. Genette: figures III. éd. Seuil 1972. Paris.
- A.J. Greimas: et J. Courtès: Sémiotique: Dictionnaire raisonné. Hachette 1979. Paris.
- A. Miquel: Kalila et Dimna. 1957. Paris.
- T.G. Pavel: la structure narrative des tragédies de Corneille. Ed. de l'Université d'Ottawa. 1976. Canada.
- G. Prince: « Introduction à l'étude du narrataire ». Poétique N° 14 1973. Seuil. Paris.
-D. Rey-Hulmann: « Procès d'énonciation des contes ». Littérature N°45 (1982). Larousse. Paris.
- T. Todorov: Poétique de la prose. Seuil 1971. Paris. □

(47) Todorov (T): poétique de la prose. p40.

(48) Todorov (T): poétique de la prose. p41.